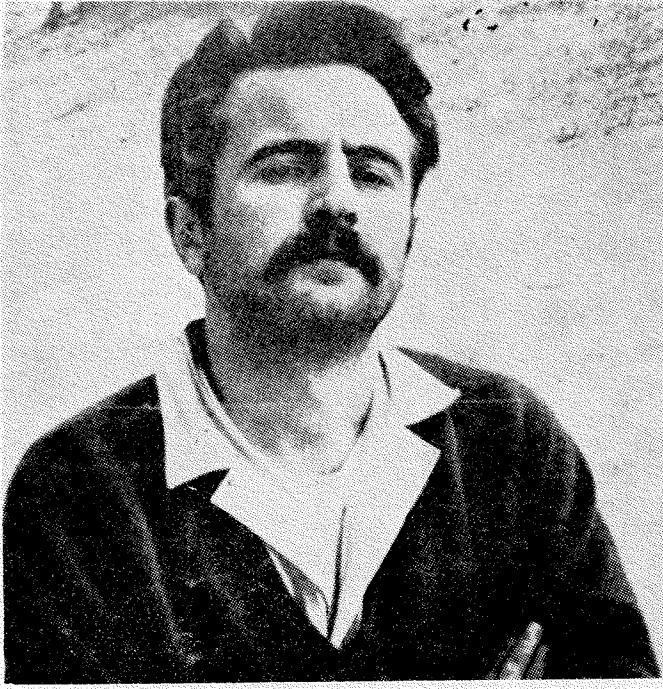


دوبريه : مؤلف «ثورة في الثورة»

نموذج المثقف الثوري !

بقلم الياس سحاب



عشرات العمليات السياسية (x) قامت بها وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية ، وما يقارب من عشر روايات وافلام ، أطلقتها في جميع أنحاء العالم ، لتكرس شخصية رجل المخابرات الاميركية « ٧٠٠ » وتدمغ العصر بطابعه ... ولكن شيئاً ما ، كان ينطلق من التحرك الشعبي البسيط ، ليفسد كل هذه المخططات ، بالرغم مما يدعمها من طاقات مالية وتكنولوجيا خارقة ...

فمقابل الشعاع السحري « ٧٠٠ » الذي أنفقت أميركا مئات الملايين من الدولارات لفرض سلطانه على العالم ، أطلقت جمهرة البوابيين الفقراء ، وبمنتهى العفوية ، شعار « ٠١ » ، مشيرة به الى شخص المفكر الفرنسي ريجي دوبريه ، فكانت تفني له وهو في سجنه ينتظر مصيره :

« في سجن مظلم حقيق
صفر صفر واحد ينتظر ... ينتظر
أن يموت في محاكمة
أو يموت بلا محاكمة . »

هذه التسمية « ٠١ » ، كان يقصد بها في البداية ، وصم دوبريه ، من قبل السلطات البوليفية ، بأنه جاسوس ، شأنه شأن جيمس بوند ، ولكنه يعمل لحساب كوبا ...

فما هي الحقيقة التي ذهب دوبريه ينجزها في بوليفيا ، بعد أن سبقته الى هناك نسخ من كتابه « ثورة في الثورة » ؟ وما هي التهم التي وجهت آية ليحكم عليه في شهر نوفمبر ١٩٦٧ بالسجن لمدة ثلاثين عاماً ، رغم رسالة خاصة من ديغول لبرينتوس حاكم بوليفيا المطلق ؟ يقول الصحفي الانكليزي بييري اندرسون ، رئيس تحرير مجلة « نيولفت ريفو » (مجلة اليسار الجديد) الذي امضى ثلاثة اسابيع في بوليفيا يبحث عن حقيقة قضية ديجي دوبريه يقول : « بدأ كل شيء في ٢١ ديسمبر ١٩٦١ . ففي ذلك اليوم تلقى ريجي دوبريه الذي يدرّس الفلسفة في جامعة هافانا بكوبا ، مندوبا من الحكومة الفرنسية ، رسالة سرية ، في غرفته بالطابق الحادي والعشرين في فندق « هافانا الحرة » . كانت تلك الرسالة من « ارستو شي غيفارا » ، يقترح فيها عليه ان يكون اول صحفي يأخذ منه حديثا بعد عودته الى العمل السري .

وقد كان هذا الطلب منطقيا من جهة غيفارا حتى قبل سنتين ، اذ كان دوبريه قد كسب ثقة المسؤولين الكوبيين عن طريق بحثين طويلين أعدهما عن استراتيجية الثورة في أميركا اللاتينية : « الكاستورية ، المسيرة العظمى لاميركا اللاتينية : « الكاستورية ، المسيرة العظمى لاميركا اللاتينية (١) ، (ظهر في مجلة « الازمنة الحديثة ») ، و « مشاكل الاستراتيجية الثورية » (ويسرى أقرارى ترجمة له ملحقه بهذا الكتاب) . كذلك كان دوبريه في ذلك الوقت يضع اللمسات الاخيرة في كتابه « ثورة في الثورة » الذي كتبه كحصيلة لمحادثات طويلة بينه وبين كاسترو .

وحسب تعليمات الرسالة كان على دوبريه ان يتوجه الى باريس ، والى مكتبة « لا جوا دولير » التي يملكها الناشر المعروف فرنسوا ماسبيرو (ناشر كتاب « ثورة في الثورة » وكتب أخرى لفيغارا وكاسترو) .

بعد شهرين من ذلك ، وبعد ان أنهى عمله في كوبا ، سافر دوبريه الى باريس . وفي الخامس عشر من فبراير ذهب الى المكتبة ، فتلقى رسالة ان عليه السفر الى « لاباز » عاصمة بوليفيا المعلقة على ارتفاع ٣٧٠٠ متر . وهناك ، سينتظره في الساعة السادسة من مساء كل ثلاثاء رجل اسمه اندريه ، أمام فندق « سوكر » .

(x) مقدمة كتاب « ثورة في الثورة » من تأليف ريجي دوبريه الذي يصدر هذا الشهر عن « دار الاداب » .

١ - اقرأ ترجمة له في كتاب « تجارب اشتراكية » - منشورات دار الاداب ، بيروت .

وسافر دوبريه الى « لاباز » التي أقام فيها مرة حين كان يجمع المعلومات لبحثيه الاولين . وكان دوبريه يحمل بطاقة صحفي يعمل لحساب دار ماسبيرو للنشر ، والمجلة المكسيكية الكبيرة « سوسيسرس » . ولم تعرقل الدوائر الصحفية الرسمية في بوليفيا مسألة الاعتراف بأوراقه الصحفية . وكان دوبريه بالطبع يستعمل جواز سفره الفرنسي الذي شهد قنصل فرنسا في لاباز بأنه كان متمما جميع الإجراءات القانونية المطلوبة بعد دخول دوبريه الى بوليفيا .

وبعد أن اتقى دوبريه بأندريه سلمه هذا الاخير الى دليئة اسمها « تانيا » ، غادر معها لاباز باتجاه الجنوب في سيارة كبيرة من ذلك النوع الذي يطلق عليه البوليفيون ساخرين اسم « غوندولا » .

في الثالث من مارس ، وصل دوبريه ودآيلته تانيا الى « سوكر » على مسافة ٣٥ كيلومترا من العاصمة ، وهناك نزلا في فندق « غراندي » في الوقت الذي كان قد سجل فيه رجل أرجنتيني اسمه في سجل الفندق تحت اسم « تروكتوزو » . ولم يكن هذا الرجل غير ارسام الارجنطيني المعروف « سيرو روبرتو بوسنوس » .

وبقي الرجلان في « سوكر » حتى السادس من مارس ، ثم توغلا أكثر فأكثر نحو الجنوب . وبعد ذلك بأيام قليلة توجهوا الى كاميري ، في منطقة البترول . وهناك ، صعدا بتعليمات من تانيا الى الشمال قليلا ، الى منطقة تلال مزروعة بالاشجار ، وشبه مهجورة . ولم يكن دوبريه حتى ذلك الوقت يعرف الى أين تقوده الدليلة .

في بداية مارس كانت بوليفيا تبدو بلدا هادئا . كانت دكتاتورية الجنرال بارتينوس العسكرية التي جاءت الى الحكم قبل سنتين عقب انقلاب عسكري ، لا تتمتع بأي تأييد شعبي ، ولكن حتى ذلك الوقت لم تكن قد ظهرت أي علاقة تمرد ، بعد أن سحق تمرد عمال مناجم القصدير - أعداء النظام الاساسيين - في عام ١٩٦٥ .

كانت تانيا تقود دوبريه الى مزرعة « لاكازا كامارينا » حيث وجد نفسه فجأة في وسط معسكر للثوار ، وكان هذا المعسكر في الحقيقة هو المركز الذي انطلق منه العصيان بعد فترة قصيرة . وكان الاخوان كوكو ولوني بيريدو قد اشتريا المزرعة قبل ثمانية أشهر ، وكان الاخوان شيوعيين ، عرف فيما بعد انهما قائدا الثوار البوليفيين . وكان الاخوان بيريدو قد جمعا في المزرعة كميات ضخمة من السلاح والمؤن وأجهزة الإرسال ، وأخذا يدربان رجال العصابات سرا . وكانا في نهاية كل أسبوع ينزلان الى مدينة « لاغوتيلاس » و « كاليري » ليعطيا الانطباع بأنهما من أصحاب المزارع المسالمين ، وكان أحد لا يشك فيهما .

لم يكن دوبريه حتى ذلك الوقت قد رأى غيفارا ، ولكن قيل له ان ذلك لن يتأخر . وكان دوبريه قد صمم على ألا تتجاوز اقامته مع الثوار أكثر من أربعة أيام

أو خمسة ، ثم يسافر بعد ذلك لنشر تحقيقاته . ولكن الاحداث تسارعت . فقد نبه أحد مهندسي البترول السلطات الى حركة مشبوهة في منطقة « ناناهاوزوا » بينما كان دوبريه ينتظر في « كازا كارمينا » فارسل قطيعة عسكري كبير لتحري الوضع ، فعجل وصول الجيش في اندلاع الثورة جنوبي بوليفيا ، حيث وقعت الكتيبة التي كان يقودها الكابتن سيلفا ، في ٢٣ مارس ، في كمين نصبه الثوار ، على ضفاف النهر ، فقتل ثلاثة ضباط واسر خمسة عشر رجلا .

وباندلاع الثورة ، ترك الثوار مركز « كازا كارمينا » وشكأوا وحدات متنقلة تجوب الغابات .

في هذه الظروف ، تمكن دوبريه أخيرا من مقابلة غيفارا ، في نهاية شهر مارس . وقد ذكر دوبريه فيما بعد ان هذا اللقاء لم يوفر له ظروف المقابلة الصحفية ، حيث كان غيفارا يقود الثوار في تلك الفترة العصيبة من العصيان ، مكبدا الجيش النظامي خسائر فادحة .

وفي أوائل أبريل ، كان دوبريه قد أنهى مهمته ، فقرر هو وبوستوس أن يفادرا منطقة الثوار ، فحاولا التوجه لمدينة غوليتارز الصغيرة شرقي كاميري ، ولكن الجيش النظامي كان قد احتلها فاضطرا تغيير الخطة .

وبعد اسبوعين من المرافقة الاضطرارية لرجال العصابات ، قررا تجريب حظهما في مويو بامبا ، في الطرف الاخر من منطقة العمليات . وفي التاريخ نفسه ، كان مصور انفلو - شيلي ، جورج روث ، قد ركب فرسا ، محاولا أن يبلغ منطقة الثوار . وكان روث ، الذي يعمل بحسابه ، قد رافق الجيش حيث التقط عددا كبيرا من الصور ، وتمنى لو يستطيع اتمام المهمة والتقاط بعض الصور في منطقة الثوار . وفي ١٦ أبريل ، ودع جورج روث قائد الجيش النظامي في لاغوتيلاس ، الذي كان يعرف نواياه .

وبعد يومين ، كان روث بقيادة أحد الفلاحين ، قد وصل الى منطقة الثوار حيث التقى بدوبريه وبوستوس . وكان الثوار الذين أثقل تحركهم وجود المدنيين الثلاثة معهم ، يسعون للتخلص منهم بأسرع ما يمكن . وبعد وصول روث بعشرة أيام ، أبعث الثوار المراسلين الثلاثة عن معسكرهم ، فبدأ الثلاثة مسيرتهم مشيا على الاقدام نحو مويو بامبا .

وفي السادسة من صباح العشرين من أبريل ، كان الرجال الثلاثة يخترقون المدينة الصغيرة ، باللباس المدني ، ومن غير سلاح ، يحملون آلات التصوير ، ويحاولون استئجار سيارة « جيب » تقلهم الى « سوكر » ، ومنها الى « لاباز » ، عندما أوقفهم رجال المباحث (الشرطة السياسية في بوليفيا) . ولم ييسد دوبريه في أولى فترات اعتقاله أي قلق ، فقد قال مثلا : انني أشهد بأنهم ، في بوليفيا ، كثيرا ما يوقفون الصحفيين للتأكد من هوياتهم . وعندما قابل الكاهن الدومينيكي الفرنسي « الاب شوارتز » دوبريه ، وسأله عن ضرورة الاتصال

بالسفارة فسي لآباز ، آجاب دوبريه : لا داعي لذلك ، فسيطلقون سراحنا بعد ساعات ، مسألة تحقق من هوياتنا فقط .

وبينما هم موقوفون ، رأهم محرر جريدة « برسنسيا » الذي كان قادما من كاميري ومتوجها الى « سوكر » ، فثرثر معهم قليلا ، كزملاء آجانب ، ثم صورهم . كل شيء كان يبدو وكأنه يسير في مجراه انطبعي ، الى أن تعرف سالوسنو شوكي - وهو أحد عمال المناجم الذين تخلوا عن الثورة - السى دوبريه وبوستوس ، فنبه البوليس ، وتولى البوليس ابلاغ المركز الرئيسي فسي لاغوتيلاس . وبعد ساعة كانت طائرة الهليكوبتر الوحيدة لدى الفرقة الرابعة تهبط فسي مويو بامبا ، لتأخذ السجناء الى ثكنة شوريني . ويقول دوبريه : « اعتقلوني في الثامنة صباحا ، وفي الثامنة مساء كانوا يعذبونني » .

وكان الذين تولوا تعذيب دوبريه من الضباط ، من رفاق الضباط الذين قتلهم الثوار - كما كانوا يدعون - وبعد يومين وليلتين من التعذيب ، فقد دوبريه وعيه ، في الوقت الذي كان فيه رفيقاه الآخران يعذبان أيضا . ولم تتوقف عمليات التعذيب الا عند وصول الميجور سانشيز ، فحلت الاسئلة محل التعذيب ، ثم جاء دور الخداع والمناورات . فقد عرضوا على دوبريه خبر وفاته في احدى الصحف الاجنبية ، وقالوا له : « ان أسهل شيء بالنسبة لنا الان هو أن نطلق عليك الرصاص فورا ، فلماذا نقيم لك محاكمة علنية ، طالما ان الجميع يعتقدونك ميتا ؟ » .

ويضيف دوبريه في رسالته الشهيرة من السجن ، الى هذه التفاصيل كما رواها ييري اندرسون ، انهم لم يمتنعوا عن قتله رافة به ، بل لانهم كانوا يعتقدون انه يملك معلومات خطيرة عن ثوار بوليفيا ، وشي غيفارا ، فقد سمعهم يقولون انهم يستطيعون الافادة منه وهو حي أكثر مما يفعلون وهو ميت . ويضيف دوبريه : أما سبب امتناعهم عن قتلي بعد أن يسوا من أن أفشي بأية معلومات ، فقد كان لدافع آخر ، هو ان العالم قد عرف بعد ذلك انني ما زلت حيا ، فلم تعد تصفيتي الجسدية أمرا سهلا .

ولنعد الى رواية ييري اندرسون :

« بعد ذلك عرضوا على دوبريه اخلاء سبيله مقابل توقيعه على وثيقة يهاجم فيها الثوار ويتخلى عن كل معتقداته . كما حاولوا ، تحت التعذيب ، أن يأخذوا من بوسنوس شهادة ضد دوبريه . أما روث المسكين ، فقد كان لا يفقه شيئا مما يجري حوله ، نظرا لجهله بأهمية رفيقيه الذين شاء له سوء حظه أن يرافقهما .

وبعد أربعة أيام من التحقيقات المتواصلة ، تلقى ضباط المخابرات البوليفية المساعدة من الولايات المتحدة الاميركية . ففي ٢٤ ابريل حضر عدد من عملاء المخابرات

الاميركية ، والمنفيين الكوبيين . وبالفعل ، فان سجلات اوتيل « بيروت » بكاميري قد أدرج فيها اسما ضابطين اميركيين : الميجور ثيودور كيرش وجوزف كيلو (من غير اشارة آتى رتبته) ، وليس صعبا استنتاج مهمتهما . وفي مايو ، وكان أي شيء عن مصير دوبريه ما زال مجهولا ، وصل نفر آخر من الضباط الاميركيين : العميد جوزف برايس والميجور كيرش (مرة ثانية) وجيمس ايفنس (من غير اشارة الى رتبته) .

ولنترك رواية اندرسون عند هذا الحد وننتقل الى الرسالة التي بعث بها ريجي دوبريه من سجنه آتى فرنسا بعنوان « ما أطلبه من رفاقي » ، لنجيب على أكثر من سؤال محير : هل اشترك دوبريه فعلا في حرب العصابات ، في الايام القليلة التي قضاها في بوليفيا ، وهل كان بالفعل يحمل رسالة من كاسترو الى غيفارا أو العكس بالعكس ؟

يقول دوبريه :

« لقد ذهبوا حتى فنزويلا وغواتيمالا ، يستحضرون من السجناء السياسيين شهادات ضدي ، ولكنهم لم يعودوا بأي دليل ، فقد كانت جميع الاسئلة ، من الأصعب حتى المناورة ، هي اعادة ميكانيكية لتاريخ حياتي العادية ، ولوظفتي كصحفي مبعوث من ماسبيرو . وسقطت بذلك الدعوى التي حاولوا رفعها على كوبا ، فتحولوا لاقامة آندعوى علي .

كانت كوبا شيئا هاما بالنسبة لهم ، ففيها تسلمت الرسالة التي طلب فيها غيفارا مني التوجه الى باريس . يتحدث المستنطق فسي استجوابه عن « الفرنسي - الكوبي » وعن « تعليمات سيده كاسترو » ، ولكن لا بد انه (هو أو كاتب الاستجواب) قد استعار هذه الالفاظ من مجلة « ريدرز دايجست » وليس من ملف التحقيق نفسه ، الذي لا يوجد فيه الا الوقائع الشرعية . لذلك ، فقد لجأ بارتينوس الى أساليب أخرى لجر كوبا السى القضية ، فقد كان يشيع مثلا ان شخصي المتواضع سيتم استبداله بخمسين من السجناء عند كاسترو ، متابعا بذلك المناورة السياسية ، وهذا ما كان يجعلني أشدد على كوني مواطنا فرنسيا ، وأطلب حماية السفير الفرنسي . وكان تعلق قضيتي بالحكومة الفرنسية - لا انكوبية - هو أكثر ما يفيظ بارتينوس .

وبعد أن فشلوا طوال شهرين ، في اثبات مهمة العمالة علي ، أرادوا أن يثبتوا للرأي العام انني من رجال العصابات ، بل انني مسؤول وزعيم . وفي بداية الامر ، كانت القضية تتعلق بمنسورة مؤقتة للالهاء . وكانوا يعلمون ان ذلك ليس صحيحا ، ولكنهم كانوا ينتظرون المزيد . فأجهزة الاستخبارات التي أجرت التحقيقات ، تعرف تماما ان هذه القصة ليست جدية ، وانه أو صح انني بالفعل قد التحقت برجال العصابات كمقاتل ، لبقيت مع العصابات ، ولما خرجت منها الا وأنا مقتول . بعد

فشل اللعبة حاولوا اقتناعي بالاعتراف بانتسابي الى رجال العصابات .

ولما فشلت اللعبة مرة أخرى ، حاولوا اختراع قصة « المجرم » للاستهلاك الشعبي ...

واستمرت الاحوال على هذا المنوال حتى شهر يوليو ، حين خرجت من زنزاتي ، لاكتشف ان هناك شيئا اسمه « قضية دوبريه » ، وان الصحفيين يهتمون بها ، وانهم لم يجعلوا مني رجل عصابات فقط ، بل « المهندس الفكري لحرب العصابات » والمنفذ أيضا . وهذا كثير بالنسبة لرجل واحد . واكبر دليل على استحالة هذا الامر ، هو انني لم أعرض طوال شهرين ، لسؤال من هذا القبيل ، من قبل المحققين .

كنت ، بعفوية وبغير تصديق لهذا النوع من التهم ، أنفي كوني رجل عصابات . وكان هذا مزعجا ، خاصة بالنسبة لي . فالانتساب العميق لحرب العصابات كان يتفق مع نواياي وخططي منذ وقت طويل . وحتى الان ، وطالما ان العالم هو ما هو عليه ، فاني لا أتمنى أن أموت في فراشي . ولكن « شي » قرر ان الوقت لم يحن لذلك ، وان من الافضل الاعلام عن حرب العصابات في الخارج . ونتيجة لذلك فقد شاركت في الحياة اليومية للمعسكر ، لان الوضع العسكري تطور بسرعة ومنعني من الخروج في الوقت الذي كنت أتوقعه ، ولكني لم اشترك في أية معركة ، حتى لا اجعل خروجي معرضا للشبهات ، اذا ما رأني سجناء أو ضباط . ومن جهة ثانية فان جيش الثوار كان له مفوضوه السياسيون الخاصون به (أحدهم لقي حتفه ، كوكو بيريدو - وهو أحد أصحاب المزرعة التي بدأ فيها تدريب الثوار) ، والمعيّنون قبل مجيئي بمدة طويلة . أما كتابي « ثورة في الثورة » فقد قرىء في أحد معسكرات الانتظار ، في أثناء غياب المفوضين السياسيين وغيابي ، وذلك بناء على مبادرة قادم جديد كان يحمل الكتاب في جرابه ، وقد استمع الى هذه القراءة الهاربان من حرب العصابات وشوكيه - شوكيه (الذين وشوا بدوبريه بعد ذلك) . ولكن اذا كان الكتاب يعبر بالفعل عن أفكار « شي » ، فانه لم يساهم أبدا في تنظيم حرب العصابات ، ولم يطلع عليه « شي » في طبعته النهائية الا في ابريل .

اني اذن أنفي كوني رجل عصابات ، لاني لم أكنه بالفعل ، حتى ولو أصبحت بسبب بقائي فترة قليلة أطول . يقول تقرير عن اجتماع للجماعة القائدة ، عثر عليه في مخازن الارشيف ، وهو الان بين أيدي الجيش : ان دوبريه وبوسنوس ، اذا لم يتمكنوا من الخروج ، فيصحبان من رجال العصابات . ولا أدري اذا كانت هذه الوثيقة ستستعمل ضدي .

كما اني أنكر أيضا انني كنت مفوضا سياسيا ، لانني لم أكنه ، كما لم أكن مسؤولا عسكريا ، والجيش يعرف تماما كل هذا .

وانا أعرف ان هذا النفي قد يؤدي الى التباسات . فأصحافة البورجوازية ، التي تفذيها التصريحات المزعجة لوالدي ، تطرح هذا النفي لتأكيد حق أو استحالة طبيعية لرجل القلم في ان يحمل بندقية ، والقول بأن المثقف الثوري معفي من الخدمة الثورية ، واستحالة قيام « كاتب » بتلطيخ يديه بالسلاح . مما يعطي تقريبا : « ابني ليس مجرما ، من تعتقدونه ؟ انه ولد شريف ، الخ ... » ان هذا لشيء سخيف ، فعندما يكتب المرء ما كتبت ، فيجب عليه بالضرورة ، الضرورة النظرية واخلقية ، ان يتحول يوما الى مجرد مقاتل من غير بندقية ، قلم سيء ، ومن غير قلم ، بندقية سيئة ، لا يمكن اذن ان تجعلوا مني روحا طيبة هائمة بالطبيعة ، هائمة في الجبال بفضل « كرمها » ، ليس قرارا من عندي ، ولكنها ضرورات الكفاح ، وتقسيم العمل مؤقتا ، هي التي منعتني من القتال ، ومن الانخراط نهائيا في جيش التحرير الشعبي . وانا حين أنفي انتسابي الى جيش التحرير ، انما أقرر واقعا ، وليس حقا غير موجود بالاعفاء .

واني أطرح هذا السؤال احتراما لرجال العصابات انفسهم : منذ متى كان رجل العصابات ، والقتال ما زال في اوله ، يهجر منطقة القتال ، حاملا حقيبة سفر في يده ، وجواز سفر في جيبه ، حتى من غير مسدس يدافع به عن نفسه ؟ ان رجل العصابات يسقط وسلاحه في يده (كوكو بيريدو) . أو يسجن بعد ان يصاب بجرح فلا يستطيع الدفاع عن نفسه (فاسكوبتر) . حتى الذين يطردون من جيش التحرير ، لا يمكنهم النزول الى المدينة بثيابهم المدنية . ولو انني أستطيع التحدث باسم جيش التحرير ، كما يتحدث المقاتل المأسور في معركة ، لكان ذلك مدعاة سرور لي . ففي النظرية التي اخترتها ، ان الانتساب الوحيد اشريف ، هو انتساب المقاتل انتسابا كاملا . ان من سوء حظي أنني لم أكن كذلك . لذلك فاني لا أستطيع ان أهدي القضاة العسكريين اكدوبة لمجرد تسهيل مهمتهم .

ومع ذلك فاني لا ادعي أبدا حالة البراءة ، وحصانة المثقف ، ولا أسعى لفصل يدي من الدم الذي سال . فاذا كانت الكتابة عملا والتزاما ، فاني مسؤول عن تبرير وتمجيد حرب العصابات ، وأقبل هذه المسؤولية كامتياز . ولكني أطلب محاكمتي على ذلك ، على التحليل الذي كتبتة للكفاح المسلح في أميركا اللاتينية - وحيدا لو كان هذا التحليل مفيدا لرجال العصابات .

ولكن لما كانت هذه المسؤولية ذات الطابع الخلفي ، التي أمثلها راضيا ، لا تقع تحت طائلة القانون الجزائري ، فقد نحتوا لي تمثال « لص » و « مجرم » ، فهذه الاسماء هي التي يطلقها على رجال العصابات أولئك السادة الذين تحمل ضمائرهم وزر قتل اكثر من عامل منجم ، واكثر من طالب . يدعون ، من غير اعتبار للسخف ، ان كتابي

نموذج المثقف الثوري

— تتمة المنشور على الصفحة ١١ —

« ثورة في الثورة » هو الذي أوقف ثورة بوليفيا على قدميها ، حتى يحاكموني حسب القوانين . عندما أقول انني لم ارتكب أية جنحة توقعني تحت طائلة القوانين الجزائية القائمة ، وعندما أرفض كل التهم التي هيكت ضدي حتى الآن ، فاني لا أسيء الى التحلل من مسؤولياتي أو الاستشهاد بأي ميثاق يستنكر حمل السلاح ، مما يناقض النظرية التي أنتسب إليها ، ويناقض حياتي منذ عدة سنوات . انني فقط أعبر عن واقع ، لا يسبب لي أي رضى خاص .

« اني أتمسك أكثر من أي وقت مضى بالكاستروية كاستراتيجية جيدة ، واقعية وصائبة ، نابعة من الظروف الحقيقية ، في معظم بلاد اميركا اللاتينية . قد أعدل كتاب « ثورة في الثورة » في بعض نقاطه الهامة التي لا أتفق فيها تماما مع غيفارا ، وذلك على ضوء تجربة الرفاق البوليفيين ومحادثاتي الاخيرة مع « شي » ، وقد أشدد على نقاط أخرى (التنديد بالاحزاب الشيوعية مثلا ، الذي يجده غيفارا في كتابي تنديدا شديدا التردد) . ولكن يجب ، في الصعاب التي يجتازها الكفاح المسلح في بوليفيا ، أن نحتاط للتقلبات ، وخيانات الرجال (غير المتوقعة) والحزب (المتوقع) ، ولكن ليس الى هذا الحد ، وبكل هذه الحيل) ، ولنظرية الكفاح الثوري التي وضعت موضع التنفيذ دون تردد .

ان تحليل هذا التاريخ هو من حق الذين عاشوه بكل تفاصيله .

وأصل الى النقطة الاليمة : الدعاية الباكية الكريهة التي أحاطت بها وصفي المجلات البورجوازية والواسعة الانتشار ، بتحريفه وإخفاء معناه الحقيقي ، الذي يشير الى وضع تاريخي وليس الى وضع شخصي ، عندما كنت في الخباء لمدة شهرين ، لم أعرف بالطبع شيئا .

وبعد ذلك أمضيت وقتا طويلا ، وطويلا جدا ، حتى أكتشف في أي سيرك نصبوني مهرجا ، وكنت أكتشف ذلك كلما سمح لي بمطالعة الصحف البوليفية أولا ، ثم باستلام أبناء عن والدي ، عن تصريحاتهما ومؤتمراتهما الصحفية ، واستلام مقتطفات من الصحافة الفرنسية .

وأود هنا أن أذكر بأن باب زناتي يفتح من الخارج ، وان الحراس لا يطلبون رأيي عندما يسمحون لمجموعة من المصورين بالدخول — سرا — او كذلك عندما أذهب الى المرحاض ، وعندما أمشي المئة خطوة في الساحة ، او عندما أقابل أمي ، علنا ، لأول مرة ، ان هذا كله لاكثر من مشين .

ولم أكن أكتشف ان اية عبارة أطلقها من غير حذر أمام صحفي ستطحن وتعجن ويكون لها هذه الاصداء .

وبعد أن يحمل دوبريسه في رساتته بعنف على الاستغلال التجاري الرخيص ، والاستغلال العاطفي لمشاعر أبويه اللذين أحيطت بهما قضيتيه ، يخاطب أصدقاءه قائلا :

« لذلك فاني اطلب السى أصدقائي أن يصححوا الامور ، فبدلا من أن تكون « قضية دوبريه » مرآة للضمانر الطيبة الخجولة ، أو مورد رزق لتجار العواطف الاسبوعيين ، يجب استخدامها لتوعية الرأي العام قليلا حول مشاكل اميركا العامة ، مشاكل الكفاح المسلح ، والفاشية الاميركية الجديدة .

فليتوقف الحديث عن دوبريه ، الذي ما زال حيا حتى الان ومعرضا للاتهامات ، وهو جالس على كرسي الاتهام ، أكثر من عاهرة من سينيسينا ، وليكن الحديث عن ثوار بوليفيا وغيرهم ، عن أولئك الذين ماتوا في القتال ، أو الذين ما زالوا على قيد الحياة يقاتلون على أرض فظيعة الصعوبة .

فليرو تاريخ عمال المناجم ، عن تعرضهم لامراض الرئة وللذبح . ان وضع أفكار فيدل و « شي » موضع التنفيذ في خلق أكثر من فيتنام لانقاذ الفيتنام او القضاء نهائيا على صناعات الفيتنام ، لا يحتاج الى رجال خارقين ، بل يحتاج من كل منا كثيرا من تكران الذات ، والكفر بكل شيء وربما بالحياة ، والصمود والعناد ، ومعدة تتحمل البقاء خاوية لعدة أسابيع .

عن هذا ، وعن هؤلاء يجب الكلام ، وليس عن محكوم بين ألف محكوم ، مؤمن له النوم والاكل على راحتته ، ولعدة سنوات . ان قضيتي وسط اليونان وكولونيلاتها ، وأميركا اللاتينية وجنرالاتها ، وفيتنام وستورلاند ، يجب أن تكون تافهة وضائعة كما تضيع الابرة وسط كومة من التبن . واذا ما بقيت هناك « لجنة من أجل دوبريه » فيحسن أن تخفف مجالات نشاطها لتبديل طابعها وتحويلها الى « لجنة من أجل الثورة الاميركية » ، أو شيء مشابه . ان الواجبات العملية موجودة ، وسأحاول أن أكتبها مرة ثانية .

اني آسف لعدم تمكني من تولي الدفاع عن نفسي بنفسي ، ولدي كل أسباب الخوف من عدم سماح المحكمة لي بالخوض في النقاش الاساسي ، أو أفساح المجال أمامي للكلام ، باستثناء الاعلان النهائي التقليدي . ان هذا الدفاع لا يمكن بالطبع أن يكون شخصا وحسب أصول المرافعات ، ولكنه دفاع عن حرب العصابات بمجملها ، عن أعمالها الشرعية والضرورية ، شرعية لانها ضرورية . يجب الفوص في التفاصيل ، وليس هذا سهلا ، مقابل تهم القتل ، والسرقه ، ونصب الكمائن ، ليس في « قتال شرعي » بل في حادث اغتيال وخيانة — وهذه تهمة ملتوية وسخيفة ، ولكن لا بد من أخذها بحرفيتها لتنفيذ سخفها — يجب عرض خلفية الحرب الثورية ، اليوم ، في اميركا اللاتينية .

حركة الثورة المسلحة في اميركا اللاتينية عن طريق المعاشية ، وصلتها بالثورات الاسيوية ، عن طريق المناقشة والمطالعة ، ولعل هذا لم يتأمن لاي مفكر معاصر آخر .

هذه هي نصف قيمة الكتاب . أما النصف الاخر فيمكن في المنهجية الفكرية الشديدة الحيوية التي ناقش فيها دوبريه وعرض ما يعرفه من معلومات . فهو يشدد ، منذ مطلع الكتاب وحتى صفحاته الاخيرة ، على ان المقياس الاساسي لتجارب النظرية ، هو نجاحها في ميدان التطبيق ، ويرفع بذلك شعارا هاما متحركا هو شعار « الفعالية الثورية » . . . لذلك نراه يركز كثيرا على شرح المخاطر العملية لنسخ التجارب الثورية نسخا آليا ، واستيرادها - كالبضاعة - من بلد الى بلد . . . ولذلك نرى دوبريه ، رغم اعجابه الشديد بنموذج الثورة الكوبية ، فانه لا يطلقه نموذجا صالحا للتطبيق في جميع أنحاء العالم ، ولكن أقصى ما يقوله عن هذا النموذج انه يلائم - في رأيه - ظروف معظم بلدان اميركا اللاتينية .

ورغم القيمة الفكرية الخطيرة للكتاب ، الذي ينطلق من أسس ماركسية - لينينية الى تحليل حركات الكفاح المسلح ، فان دوبريه في رسالته الشهيرة من سجنه في بوليفيا ، يوصي بأن كتابه ليس نهائيا ، وانه لو أعاد كتابته لادخل عليه كثيرا من التعديلات على ضوء تجربة « الرفاق البوليفيين » . ويضيف ان من حق الذين يعيشون تفاصيل تاريخ معين ، أن يكتبوا تحليلا لهذا التاريخ . . .

ان أعظم ما يحتاجه المواطن العربي في مرحلة تكاثر شعارات الكفاح المسلح ومتفرعاته من حوله ، هو أن يمسك بزمام منهجية فكرية معاصرة ودقيقة ، تمكنه من ايجاد دربه وسط هذا الطريق الشائك ، فلا يكون الاندفاع العاطفي هو دليله الوحيد في الطريق .

ان كتاب دوبريه في هذا المجال ، هو أحد أخطر الكتب السياسية التي صدرت في القرن العشرين ، يضاف الى الادب الماركسي معلما عصريا هاما وشجاعا من معلمه .

الياس سحاب

منشورات دار الاداب

تطلب في

الدار البيضاء (المغرب)

من

مكتبة دار العلم

للنشر والتوزيع

٤ شارع المكي - الاحباس

تلفون ٦٢٢٠٩

هذا الدفاع الذي لا أستطيع المرافعة به ، لا بد من أن أصوغه مكتوبا ، ثم أشره بعد ذلك في الخارج . فاذا كان بالامكان ربح المعركة الدعاوية ، فسيكون ذلك على الاقل متأخرا .

وهكذا كان ، لم يسمح لدوبريه بالكلام طويلا ، وبحرية ، وحكم عليه بالسجن ثلاثين سنة ، ولكن ها هو كتابه يترجم الى اللغة العربية ، ولن تتمكن حكومة بوليفيا من منع ترجمته الى سائر لغات العالم ، كما لن تتمكن من انتشار أي فكر ثوري يتسرب من سجن دوبريه الى جميع أنحاء العالم .

وفي خضم الاحداث الكبيرة التي تجتازها منطقتنا العربية ، تتردد يوميا على سمع المواطن العربي كلمات « الحرب الشعبية » و « الكفاح المسلح » و « العمل الفدائي » . . . هذه الشعارات تم تصل لنا الا بعد أن تبنتها شعوب أخرى ، ليس بأحرف كلماتها ، بل بجبال التضحيات والدماء ، والاطار والارواح التي ذهبت سدى في المراحل الاولى ، الى أن اهتدى كل شعب الى الشكل الذي يلائمه من هذه الشعارات .

كذلك لا بد هنا من الإشارة الى ظاهرة تفشت عندنا مع انتشار هذه الشعارات ، وهي انصراف عدد كبير منا الى مطالعة تواريخ ثورات الحرب الشعبية المسلحة بقلم صانعها . . . وقد أدى هذا في معظم الاحيان الى انقسام اعجابنا بالتجارب ، فأصبح هناك من ينادي بأفضلية التجربة الكوبية ، أو التجربة الصينية ، أو الفيتنامية . . . ومطابقة كل واحدة من هذه الثورات على ظروف واقعانا العربي .

ليس كتاب ريجي دوبريه في هذا المجال حكما بين هذه النظرات المختلفة . انه كاستروي متعصب ، يعتقد ان التجربة الكاستروية تلائم معظم بلاد اميركا اللاتينية . وليست قيمة الكتاب على كل حال محصورة في هذا المجال .

أين تكمن قيمة الكتاب إذن ؟

قبل هذا الكتاب ، كان دوبريه قد اتهم قراءة كل ما كتب حول الثورات المسلحة في قارتي اسيا واميركا اللاتينية .

ثم ذهب دوبريه يوجب أنحاء اميركا اللاتينية ، يستمع ، ويناقش ، ويراقب ، فوضع حصيلة هذه الجولات بحثين كبيرين أحدهما بعنوان « استراتيجية الثورة في اميركا اللاتينية » والاخر بعنوان « الكاستروية ، المسيرة الكبرى لاميركا اللاتينية » . ثم عاش دوبريه - كما يشرح في مقدمته - سنتين في هافانا ، بقرب كاسترو وبقية أبطال ثورة كوبا ، يناقشهم في كل مسائل الثورة المسلحة في اميركا اللاتينية .

وهكذا تأمن لروجه دوبريه اطلاق على تفاصيل